# حدث في الإجازة

مجموعة قصصية

**عنـــوان الكتاب: حدث في الإجازة**

**اســـم المـؤلف: عزة مصطفى عبد العال**

**التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية**

**رقـم الإيـــداع: 25914 / 2021**

**الترقيـم الدولي: 0 - 270 - 998 - 977 – 978**

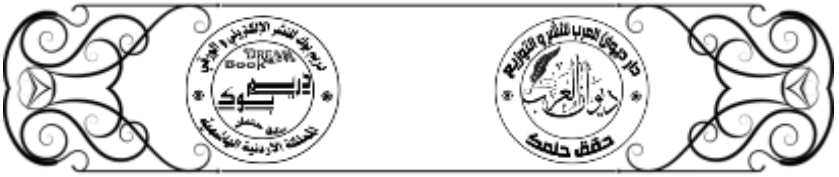

**التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين** **تـصـمـيـم الغلاف: نعمة أنور كريم**

**التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه** **رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى**

**المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة**

**دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد**

**جوال: 00201211132879**

**البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com**

**حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.**

# حدث في الإجازة

مجموعة قصصية

عزة مصطفى عبد العال

بسم الله الرحمن الرحيم

# الإهداء

إلى القادمين عندما نكون هناك في الماضي

**عزة مصطفى**

****

# يوم رحيل الصوت

استيقظ الولد الذي يبيع البرتقال، وحمل بضاعته وهمّ أن ينادي عليها بحنجرته القوية لكنّه لم يجد صوته.

والمدرّس الذي يحمل حقيبة بها كراسات تحمل علامات حمراء، كتب درسه على السبورة وفتح فمه ليقول: " أنّ من الكلمات ما تُرفع ومنها ما تُجر ومنها ما تُجزم " لكنه لم يجد صوته.

بائع البيكا الذي ينظف البيوت من بقايا الأشياء القديمة ولا يمل طوال النهار من سعيه الدؤوب في هذا الصباح افتقد صوته.

وقف الطبيب أمام المريض يفحصه ويشخّص حالته وعندما أوشك على وصف العلاج اللازم هرب صوته.

والقاضي الذي أصدر حكمه أمس بإعدام متهم لم تثبت إدانته عندما أراد إصدار حكم ضد بريء آخر لم يجد صوته.

حتّى الشرطيّ الذي ألقى القبض على امرأة تفترش الطريق العام ببضاعتها القليلة لم يخرج صوته.

توجّه الجميع إلى الميدان الرئيسي للمدينة ليعلنوا احتجاجهم عن غياب أصواتهم، جاء المحافظ وأشار في صمت إنه أيضاً بلا صوت وأن كل المدينة مثلهم وأنه سيبذل قصارى جهده في البحث عن السبب.

وفي صباح الغد كلف فريق العلماء للبت في الأمر وانطلقت الأقمار الصناعية في السّماء تنقب عن آثارٍ لحوارٍ قديمٍ أو كلمةٍ معلقةٍ ما بين السّماء والأرض، أو دعوةٍ وقعت من صاحبها أو حتى بقايا أغانٍ قديمةٍ.. ظلت الأقمار تبحر في الفضاء حتى عثروا على صرخةٍ عالية جداً جداً تنطلق بسرعة الضوء وتتبعها كل الأصوات، حين أخذوا عينة منها وحللوها وجدوها لمتهم صدر في حقه حكم إعدام بلا أدلة تدينه سوى شهادة زور لصديقٍ قديمٍ.

اجتمعوا عند القاضي وطلبوا منه تخفيف الحكم، كان القاضي مستعداً أن يبدّل كلّ الأحكام في مقابل أن يخرج من هذه الورطة ويتخلص من تلك العيون التي تطارده بالاتهام، كتب مذكرة ووقعها باسمه بعدم كفاية الأدلة، وانتظروا معه عودة الصوت لكن المتهم الذي فقد رغبته في الحياة لم يرغب في الحديث مرة أخرى.

استدعوا فريقاً طبياً حاولوا علاج السبب وبعد مباحثات كثيرة أعلنوا عدم مسؤوليتهم عن تبعات عودة الصوت.

استرد المتهم البريء صرخته وعادت الأصوات إلى أصحابها لدرجة أن الناس لم يصدقوا وأخذوا يجربون أصواتهم بالغناء والهتاف والسباب أحيانًا والضحك والبكاء والعويل أحيانًا أخرى.

ظلوا هكذا لعدة أيام وتحولت المدينة إلى حالة من الصخب حتى تضجر الصفوة ولجؤوا إلى القاضي ليصدر أحكاماً في حق كل من يتطاول بصوته وكان أولهم المتهم الذي صدر في حقه حكمَ إعدامٍ سابقاً، لكنه لم يصرخ هذه المرة وفوجئ بصرخات كثيرة تلاحق القاضي.

****

# حبٌّ من عالمٍ آخر

كان أبي يحمل العالم في جعبته ويمضي بسلام القديسين.. وتلك الغولة التي تسكن الحقول المجاورة تراقبنا لتظفر بوجبة سمينة من الأطفال؛ فيدثرنا الرعب ونقبع في بيوتنا نحلم بمدائن بعيدة لا تفترس براءتنا الجميلة.

....

- جميلة الجميلات أنت لن يسكن قلبك غيري.. ولن ترى عيناك سوايَ.. أنت لي وحدي.. وحدي.

كان كلما رآني أمر من أمامه يهذي بتلك الكلامات لكني لا أبالي فمن يهتم بهذا المزارع الأجير الأبله... !

....

عندما يأتي المساء نغلق الأبواب والنوافذ ونخفي رؤوسنا أسفل الوسائد كي لا يصل إلى مسامعنا عواء الكلاب والذئاب المسعورة أو ترى أعيننا اللصوص الذين يتسللون في الظلام بحثاً عن أي شيء يصلح للسرقة لكننا نخبئ ما نملكه داخل قلوبنا فلا يعثرون عليه.

....

-سأطاردك في كلّ مكان.. ستجديني أمامك في الشوارع في البيوت في الحوانيت وفي أحلامك لن أتركك لغيري.

كان يختبئ خلف النافذة ويردد تلك الكلامات فأضحك في صمت.. فمن يبالي بهذا الأبله !

....

استيقظنا في صباح شتائيّ شديد البرودة على صراخ أمي فعلمنا أن أبي قد مات، وكانت قطرات المطر تنخر سطح بيتنا كأنها تتسابق مع من سيذرف دموعاً أكثر سيحظى بالصفاء للحظة لا تتجاوز طرفة عين.

....

-الورد الذي لا يُسقى يذبل ويموت.. أنا من سيرعاكِ بعد أبيك.. لن أتركِ تذهبين وحدك إلى أي مكان.

اعترض طريقي وحذرني بتلك الكلمات.

-طفح الكيل.

هذا ما قلته لأمي منذرة بما سأفعله معه في المرة القادمة لكنها ترى إنه معتوه ولا يستحق العقاب.

....

بعدما مضت طفولتنا عرفنا أن الغولة لا توجد سوى في عقولنا.. واللصوص لا يزورون الفقراء أمثالهم، فصرنا ننام بلا خوف ونضع رؤوسنا فوق الوسائد حالمين بنسيم الهواء يمر من أسفل شجرة العنب التي تُعرش سقف بيتنا.

....

كنت أقف في الشرفة أخبِّئ دموع يتمي عن أمي المريضة.. لكنه كان يحدق فيّ من سطح البيت المقابل لبيتنا صرت ساخطة عليه أكثر من ذي قبل ودعوت الله أن ينقذني من نظراته.. فإذا به يختل توازنه ويسقط من أعلى مضرجاً بالدماء جثة هامدة وسط الشارع.

....

مرّ من العمر عام وكنت في عامي الأخير في الجامعة، وبعد أن أنهيت الامتحان الأخير وقفت أمام البوابة الكبيرة أودع سنواتي بها.. فإذا به يأتي من بعيد طالباً الحديث معي، للوهلة الأولى شعرت بالرهبة وتراجعت بضع خطوات للخلف وأنا أنظر إليه بهلع، اعتذر برفق ومد يده بوشاح كنت قد فقدته منذ عدة أيام وسألني بأدبٍ مبالغ فيه:

- هل هذا يخصك؟

لم أنظر سوى في عينه كانت تحمل نفس النظرة الأخيرة التي رمقني بها وهو يسقط لكنه كان مختلفاً قلت في نفسي: "يخلق من الشبه أربعين" ثم شكرته وانصرفت.

....

اعتدت كلما مللت الفراغ أصعد إلى سطح بيتنا أتأمل السّماء والنجوم والأشجار البعيدة والحقول التي تحاوط شارعنا، وكلّما نظرت إلى الموضع الذي سقط فيه أراه يرتدي الأبيض، ويجلس وسط حلقة من حلقات الذكر ربما تحفه الملائكة أو أرواح شبيهٍ بروحه.

هذا الذي أعطاني الوشاح المفقود فوجئت به بعد عدة أيام يتقدم لخطبتي.. لم أنسَ نظرته الأولى لي فتحججتُ بعدم مناسبة الوقت للزواج، وبعد انصرافه غاضباً جاء آخر فقبلته زوجاً كي أهرب من مطاردة أوهام في رأسي.

....

انتقلت إلى بيت زوجي وتركت بقايا ذكرياتي هناك على سطح بيتنا.. أصبحت حياتي الجديدة أكثر سلاسة والأحلام ممكنة والطموحات سهلة التحقق.. إنها الحياة تجرفني بعيداً عن شلالات الخوف.

....

-مريم.. استيقظي يا مريم.

كنت نائمة عندما سمعت من ينادي اسمي.. وحدي في الشقة بعد أن غادر زوجي إلى عمله.

-استطعت أن أتوصل إليك بصعوبة.. أرجوك استمعي إليّ.

عاد الخوف يداعب أفكاري، الصوت يأتي من النافذة يشبه صوته:

-قد يبدو كلامي غريباً لكنها الحقيقة.. أنت كنت زوجتي وكنا نعيش قصة حب ليس لها مثيل لكنك مت في حادث سير ولم أطق الحياة بعدك فذهبت أبحث عنك في العوالم الأخرى حتى وجدتك.

هذا صوته الذي كان يطاردني من خلف نافذة بيتنا لكن كيف؟ لقد رأيته يموت أمامي!

-أنا لم أمت لقد أنقذني ابني.. أرجوك عودي إليّ أريدك بشدة.

صرخت بأعلى صوتي:

-كفى.. اتركني!

....

الشحوب الذي يكسو وجهي يُقلق أمي فتنظر في عيني لتقرأني لكني أراوغها بالنظر إلى شجرة العنب.

-لماذا ذبلت الشجرة يا أمي ولم تعد تطرح ثمار؟

-لقد هرمت يا ابنتي.

-حتى الأشجار تهرم وتحتضر مثلنا أم إنها ستفاجئني في يوم من الأيام بعودتها للحياة من جديد!

الصوت يعود في رأسي كأني أراه أمامي في صورة مشوشة:

-عودي يا حبيبتي هذا ابنك يريد التحدث معك.

- تعالي يا أمي أشتاق إليك.

أمسك برأسي كي يتوقف لكن لا فائدة.

....

عندما أجلس وحدي أشعر بالحنين إليه أعترف إنه شغلني.. استطاع أن يحتل تفكيري.. لكن ما يحدث ضرب من الجنون كيف أصدق أني تزوجته في عالم آخر وأنجبت ابناً لا أعرفه، أتذكر كلماته عندما كان يهمس لي:

-أنت لي وحدي.. وحدي.

أياً كانت الأنثى عاقلة فهي تعشق الحبّ تهوى الاهتمام حتى لو كان العاشق مجنوناً؛ كان يحبني باستماتة وزوجي منشغل طوال الوقت بالعمل.. وأنا وحدي أصارع الذكريات ومطاردة كائن ينخر عقلي لا أدري كيف أسمعه وهو غير موجود.

وفجأة بدأ يحدثني هذه المرة أراه بوضوح :

-مريم أعرف إن ما يحدث غريب بالنسبة لك.. لكن حاولي أن تفهمي نحن نعيش في عوالم متشابكة متصلة ببعضها فأنت مثلاً تعيشين في عالم وميتة في عالم وتزوجتِ في عالم ولازلت صغيرة في عالم آخر.. لقد عانيت كثيراً حتى استطعت الوصول إليك يجب أن تفهمي أنني لا أستطيع الحياة من غيرك.

ولأول مرة أرد عليه في عقلي:

-لكنّني متزوجة من آخر!

-بمجرد أن نرحل لعالمنا ستتغير قوانين الحياة.

-لا أستطيع ..!

لا أستطيع ترك أمي وإخوتي ووطني وزوجي وطفلي الذي أحمله في بطني.

-أرجوك يا مريم .....

-أرجوك أنت أخرج من عقلي اتركني وشأني.. دعني أعيش حياتي حاصرتني منذ طفولتي.. أنت ترعبني أتوسل إليك ابحث عني في عالم آخر.. اتركني لعالمي.

-هل هذا اختيارك الأخير؟

-نعم أنا أحب زوجي ولا أريدك.

- حسناً ما دام هذا قرارك سأغادر لكنك ستندمين على فراقي لن تجدي من يحبك مثلي.

-أعدك أنني لن أنساك لكن عليك أن تحترم إرادتي.

بدأت تتشوش صورته وتختفي ويبتعد صوته ويتلاشى، وكان جسدي يهتز ويرتعد بشكل لا إرادي، ثمّ شعرت بألم شديد في رأسي وسقطت فاقدة الوعي، ولم أفق إلا عندما جاء زوجي فدخلت في نوبة من البكاء الهستيري.

شعر زوجي أنّ ما أنا فيه سببه انشغاله عني فمكث بجواري عدة أيام كانت كافية أن أنسى ما حدث وأعود لرشدي.

....

وجه طفلي يحمل براءة القديسين وجمال السماء فأغوص في عمق عينيه.. وأشعر لأول مرة بالسكينة حيث لا غول لا لصوص لا عوالم أخرى تطاردنا بماضيها.

****

# المحارب الأخير

على حدود بغداد وقفت أنا ومجموعة من أشجع الفرسان كي نصد هجمات المغول ونحمي عاصمة الخلافة، كنا نقف عند أبواب المدينة عندما رأينا جيش كالسيل ينهمر أمامنا قاومنا بثبات لنمنع سقوط دولتنا، واجهنا بقوة كل من يتقدم نحونا لكن ظل يسقط منا شهيد وراء شهيد حتى فقدت كل من معي، قلت لنفسي يجب أن أحدد هدفي وأدافع عن مكتبة بغداد العظيمة وأنقذ ما فيها من كنوز الكتب والمعارف، فركضت قبل أن يصلوا إليها وحملت ما أستطيع حمله من نفيس الكتب، ثمّ تسللت من الباب الخلفي للمدينة في محاولة لإنقاذ ما تبقى من حضارة المسلمين، أخذت أجري في اتجاه مصر ولم أنتبه للجرح الغائر في كتفي الذي كان ينزف طوال الوقت حتى سقطت من فوق فرسي وسقطت فوقي الكتب، كان آخر ما رأته عيناي الشّمسَ وهي تسحب أشعتها الدامية للمغيب وسط صحراء ممتدة ما بين مصر وبغداد ودخلت في غيبوبة طويلة.

عندما أفقتُ وجدت نفسي في مكان غريب عبارة عن حجرة بيضاء وأنا ممدد فوق شيء مليء بالخراطيم المتصلة بجسدي وبجواري رجل غريب الملابس يتحدث بكلام لا أفهمه استجمعت قوتي وأنا أسأله:

-أين أنا؟

ربت على كتفي وهو يقول:

-لا تقلق أنت في مستشفى القوات المسلحة، لقد نجوت بأعجوبة بعد أن وجدك طيار كان في رحلة استكشاف.

-لا أفهم ما تقوله لكن أين الكتب التي كانت معي؟

-موجودة في الأمانات.

ثمّ ذهبت بعدها في نومٍ عميقٍ لا أسمع سوى صوت صهيل الأحصنة وضرب السيوف وصراخ النساء وبكاء لأطفال، عندما استيقظت حاولت التخلص من تلك الخراطيم فصرخت المرأة التي كانت تراقبني:

-اهدأ لا تتحرك سأحضر الطبيب.

ثمّ أخرجت من ملابسها قطعة من المعدن وضعتها على أذنها وتحدثت. بعدها جاء ذلك الرجل الذي رأيته من قبل وأخذ يتحدث معي في محاولة لتهدئتي وأنا أنظر إليه غير مستوعب ما يحدث، ثمّ وخز ذراعي بإبرة ذهبتُ بعدها في النوم مرة أخرى، وعاد يضج في أذني صوت صهيل الأحصنة وأنين المصابين وقعقعة سيوف تتكسر من قوة المبارزة، وحين استيقظت لم أستطع فعل أي شيء استسلمت لتلك الخراطيم التي تسلسلني ولتلك المرأة التي ترمقني بين كلّ فينة وأخرى بنظرة ارتياب وهي تنظر إلى لوحة موضوعة فوق رأسي تسير فيها خطوط متعرجة.

مضت عدة أيام حتى تعافيت تماماً وتحررت من تلك القيود التي كانت تحاوط جسدي قلت لهم:

-أريد أن أذهب إلى مصر.

فقالوا لي: إنك في مصر بالفعل.

قلت لنفسي: كيف حدث هذا كنت على مسيرة أيام من مصر ارتبت منهم وحدثني عقلي ربما أكون قد وقعت في أسر الجن والشياطين؛ فطلبت منهم أن يطلقوا سراحي بحق الوعود التي بينهم وبين سيدنا سليمان واستعذت بالله من شر ما خلق، وسط ضحكاتهم ودهشتهم حتى جاء الرجل الذي قالوا أنه أنقذني وطلب من الجميع الخروج لنتحدث وحدنا وبدأ الحوار يدور بيني وبينه في هدوء فسألني:

-من أين أنت؟

-من بغداد عاصمة الخلافة.

-وإلى أين كنت ستذهب؟

-إلى قاهرة المعز.

-لماذا كنت ترتدي تلك الملابس الثقيلة؟

-لأننا كنا في المعركة.

-مع من؟

-مع المغولِ مدمري الحضارة.

-هل أنت الناجي الوحيد؟

-نعم هربت كي أنقذ بعض الكتب الثمينة ولا تصل إليها أيديهم.

ظل وجهه طوال الوقت تتبدل ملامحه ما بين بالدهشة والرعب، ثمّ أخرج قطعة من المعدن وتحدث فيها بوجل شديد كأنه يتكلم مع قائد أو أمير، وما هي إلا لحظات حتى جاء مجموعة من الرجال يرتدون ملابس غريبة وأخذوا يستجوبوني عن كل صغيرة وكبيرة حتى تلك اللحظة التي سقطت فيها من فوق فرسي، ثمّ طلبوا مني أن أذهب معهم لكني رفضت التحرك قبل أن اصطحب كتبي وبالفعل أحضروها لي فحملتها وخرجت معهم إلى الشارع ركبنا عربة كبيرة لكنها تسير بلا أحصنة شقت بنا الشوارع ويا لعجب ما رأيت؛ بنايات ضخمة عربات كثيرة بألوان وأشكال غريبة بشر يشبهون الإفرنج.. حوانيت تعرض بضائع عجيبة.

كنت أنتقل من دهشة إلى دهشة حتى وصلنا مكاناً كان واضحاً إنه كتيبة لجيش ما سألتهم بخوف:

-هل أنتم من المغول؟

بثوا في قلبي الطمأنينة وأكدوا لي أنّهم ليسوا من الأعداء.

جلسنا في حجرة كبيرة مع قائد هذه الكتيبة وحضر بعض الرجال كانوا يطلقون عليهم العلماء وأخذوا يسردون لهم كل ما حدث وكل ما قلت فطلبوا رؤية الكتب التي كنت أحملها أعطيتها لهم وفحصوها بدقة قال أحدهم:

-إن آثار الحبر حديثة فهذه المخطوطات كُتبت منذ شهور قليلة.

ثمّ التف العلماء مع بعضهم في حلقة مغلقة يتحدثون بلغة أعجمية، وبعد أن انتهوا تحدثوا مع هؤلاء الآخرين الذين اصطحبوني إلى هذا المكان، ثمّ أخذوا يشرحون لي إنني وقعت في فجوة زمنية أثناء سقوطي من على الحصان بسبب قوة طاقة الخوف على الكتب.

عقلي لا يستوعب ما أنا فيه لكنهم طلبوا مني البقاء في الكتيبة حتى لا أصطدم بواقع غريب وثقافة غير مألوفة وعندما سألتهم عن مصير الكتب أخبروني أنهم سيضعونها في المتحف الإسلامي مع باقي أغراضي.

لكني تذكرت هجوم المغول فسألتهم بفزع:

-ما الذي حدث لبغداد عاصمة الخلافة؟

قالوا : سنخبرك بعد أن تستريح.

وشردت مع نفسي فيما فعله المغول بحضارة العالم وكيف كانت نهايتهم.

****

# يوم اختفاء المسنين

دار المسنين عالم من الإنسانية البائسة، أطفال بلا طفولة عجائز أفنوا أعمارهم في تربية أبناء قساة أودعوهم بلا رحمة في دار لا تقدم الرعاية الكافية لأمثالهم، اليأس وتمني الموت هي السمة المشتركة بينهم، كلّ ما يبقيهم على قيد الحياة أنهم يؤنسون بعضهم البعض ويحيون كأسرة واحدة.
لم يزرهم أحد منذ زمن طويل سوى بعض أصحاب القلوب الرحيمة الذين يأتون على فترات متباعدة حاملين بعض الهدايا والقليل من الفرح للنفوس التي جففتها الوحدة، وتلك الزيارات غالباً ما تكون قصيرة وقليلة، لكن هذه المرة كانت الزيارة مختلفة، فقد جاء شاب حاملاً الكثير من الفاكهة ومكث معهم فترة أطول ظل يلهو معهم ويلقي عليهم النكات ويطرح الأسئلة ويعطي جوائز للفائزين بالإجابات الصحيحة كان آخر سؤال أطلقه قبل أن يغادر:
-ما آخر أمنية لكم في الحياة؟
أجابوا في صوت واحد.
-أن نعود شباباً مثلك.
-لماذا؟
-حتى نصحح أخطاء الماضي ونعلم أبناءنا كيف يكون بر الآباء.

-حسناً سأعطيكم جميعاً جوائز على حسن إجابتكم.

أعطى لكل واحد منهم علبة مغلفة وعندما فتحوها وجدوا حبة دواء، قال قبل أن يفكروا :

-هيا تناولوا هذا الدواء كي تتحقق أمنياتكم.

نظروا إليه بدهشة فقال:

-لا تتعجبوا فأنا في مثل سنكم وأردت أن أعود شاباً كي أنجز ما فاتني في الماضي فصنعت هذا الدواء من أجلنا ليجدد خلايا الجسد ويعود كما كان في عمر الشباب لكن يجب أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا حتى ينتهي مفعول الدواء.

سعادتهم بما سمعوه جعلتهم يتناولون الدواء بسرعة بعدها تركهم الضيف وانصرف، أخذ كل واحد منهم يحلم بما سيفعله بعد أن يعود شاباً حتى غلبهم النعاس فذهبوا لينامو لكن نومهم هذه المرة مختلفاً كانت أجسادهم تهتز بعنف كأنهم يركبون أرجوحة من ذلك النوع الخطر في مدينة الملاهي، وعندما استيقظوا لم يجدوا أنفسهم عجائز بل صاروا صغاراً في سن العشرين لم يعرف بعضهم البعض لتغير ملامحهم ونبرات أصواتهم، اتفقوا أن يغادروا في صمت وأن يحافظوا على سرهم وألا يعودوا إلا إذا حدث أمر طارئ.

تسللوا إلى الخارج قبل حضور المشرفين وذهب كل واحد في طريقه، كانت واحدة من تلك التي لم تكن تكف عن البكاء شوقاً لابنها الوحيد قررت

أن تذهب إليه وتلقنه الدرس؛ فتنكرت في شخصية باحثة اجتماعية وذهبت تطرق باب ابنها وعندما فتح حفيدها أخبرته إنها بصدد طرح بعض الأسئلة لعمل استبيان اجتماعي رحب بها الحفيد وأذن لها بالدخول أخيراً رأت بيت ابنها الذي كان بيتها في الماضي تغير كل شيء فيه الحوائط الأرضيات النجف حتى صورة أبيه المعلقة فوق الحائط بزيه العسكري لم تعد موجودة.. أخفت دموعها وهي تتنفس روائح المكان الذي يحوي قطعة من قلبها، طلبت من الحفيد الحديث مع رب الأسرة فأومأ بالموافقة وأتى بأبيه الذي كان نائماً أو مريضاً وقد بدت عليه الشيخوخة.. نظر إليها بتأنٍ وهو يقول:

-لماذا أشعر أنني أعرفك؟

ـردت بلباقة: شعور متبادل فأنت تشبه أبي.

جلسوا جميعاً بدأت بطرح أسئلتها:

-ما رأيكم في أداء دور السنين؟ هل تقدم الرعاية المناسبة للنزلاء أم إنها تحتاج إلى تطوير؟

كان السؤال بمثابة صاعقة وقعت عليه تعلثم كثيراً قبل أن يقول:

-لا أدري.

فأسرعت بإلقاء آخر في ملعبه:

-هل لديك قريب في دار المسنين؟

صمت وهو يخفي دموعه فقد تذكر أمه التي لم يزرها منذ خمس سنوات بسبب انشغاله بتجارته لكن المرض هاجمه ولم يعد يقوى على شيء سوى ملازمة الفراش والخضوع للعلاج.

عندما شعرت بما يعانيه من ألم تخطت للسؤال الأخير:

-لو أمك لا زالت على قيد الحياة هل كنت ستودعها في دار المسنين أم كنت ستقوم برعايتها؟

هنا لم يعد يحتمل انفجر في البكاء تذكر تذمر زوجته من خدمة أمه وإصرارها على إيداعها في دار المسنين.

نظرت إليه بشفقة أم أرادت أن تضمه في صدرها وتمسح دموعه لكنها لجمت نفسها وهي تقول:

-لقد أطلقنا حملة تحت شعار "بروا آباءكم يبركم أبناؤكم"

ثمّ انصرفت وهي تودعه وداعاً حاراً.

إن ما فعلته لا يختلف كثيراً عما فعله الآخرون الذين وجدوا أن هذا العالم تغير كثيراً بشكل لم يعد يناسبهم عالم احتلته وسائل التكنولوجيا، لم يعد يوجد لقاءات أو تبادل زيارات حل الموبيل والنت محل العلاقات الإنسانية، ماذا سيفعلون في هذا العالم الغريب عليهم، لم يمضِ المساء حتى عادوا جميعهم إلى الدار نظر كل واحد منهم إلى الآخر بعد أن فهم ما أراد قوله وذهبوا إلى أماكنهم ليرتاحوا بعد يوم من الإجهاد والسير بلا هدف في شوارع بلا روح.

وعندما أشرقت شمس الصباح وجدهم المشرفون على الدار نائمين في مضاجعهم وحين استيقظوا وسألوهم عن سر غيابهم.. لم يتذكروا أي شيء فقد ذهب مفعول الدواء وعادت الذاكرة إلى طبيعتها خاوية إلا من بعض الذكريات البعيدة.

لكنه كان يوماً مختلفاً فقد زار كل الأبناء آباءهم.

****

# قلب الأم

دريم بارك عالم من المرح الطفولي.. انسلاخ من العالم بواقع مزيف؛ أرجوحة تصعد برفق أرجوحة تهبط بقسوة.. بيت من الرعب الأسطوري.. شلالات وهمية، لم يمنحني قلبي القوة كي أشارك ابني اللعب تركته لأبيه ووقفت بعيداً أراقبه بقلق وأنا أتذكر بأسى موعد إجراء العملية بعد أسبوع هكذا أخبرني الطبيب بضرورة السرعة فكل لحظة تمر تشكل خطورة على حياتي فذلك القلب المجهد لم يعد يحتمل المقاومة لكن قبل كل شيء كان عليّ أن ألبي رغبة ابني الوحيد ذي السنوات السبع في زيارة دريم بارك ربما تكون أخر رحلة لنا معاً، أحاول أن أبدو طبيعية أمامه كي يستمتع بوقته، كلما نظرت إليه أشعر بانقباض قلبي:

-آه يا صغيري أريد أن أكون معك حتى أراك وأنت تكبر أمام عيني عاماً بعد عامٍ.

تسقط الدموع رغماً عني، أدير وجهي بعيداً كي لا يراني في هذه الهيئة، أسير بضع خطوات بعيداً عن اللعبة التي يلعب بها وأنا لا أستطيع التحكم في دموعي حتى انتبهت على صوت مجموعة من البنات والأولاد ينادون على شاب اسمه عمر يجلس بعيداً يتناول طعامه.

-عمر يا عمر هيا انضم إلينا.

-سأنهي طعامي أولاً.

-ماذا تأكل؟

-وجبتي المفضلة بطاطس وكاتشب .

يضحكون بسخرية: بطاطس بطاطس حياتك كلها بطاطس.. ستعمل شيء آخر غير تناول البطاطس عندما نعود ستشرح لنا ما فاتنا من محاضرات.

يرد باستهزاء: أنا!

-أنت عبقري يا عمر تبهرنا بإبداعك.

شرد لبرهة فسأله زميل:

-ما بك يا عمر؟

-تذكرت أمي كانت دائماً تقول لي أنت عبقري، كنت أحبها جداً لكنها ماتت وأنا صغير.

دار هذا الحوار أمامي كأني في حلم اسمه عمر كابني ويشبه ابني كثيراً ويحب البطاطس مثله شعرت أنني أريد أن أحضنه فوقفت أمامه وحاوطته بذراعي لكنه لا يراني اجتاز وجودي وذهب إلى أصدقائه الذين ينادونه.

خُيل إليّ أني أتوهم مشيت بعيداً عن هذا المشهد... مشيت ومشيت حتى تعب قلبي المريض جلست على الرصيف بالكاد ألتقط أنفاسي وأنا أبكي:

-آه يا صغيري كيف ستعيش بعدي كيف سأتركك وحدك في هذا العالم المخيف كيف ستنام ولن تجد من يحكي لك قصة قبل النوم ولن تجد من يوقظك لتذهب إلى مدرستك بعد أن يطعمك فطورك.

كان تعب قلبي وإرهاق عقلي قد وصل ذروته تنفست بعمق وألقيت عينيّ في الاتجاه الآخر... رأيت نفس الشاب الذي تركته للتّوّ يسير مع فتاة ترتدي فستاناً أبيض، كان جميلاً وثيابه مهندمة وأصدقاؤه يلقون عليه الزهور والأوراق الملونة أستجمع قوتي وأقترب منه فأسمع خطيبته تسأله بدهشة:

-لماذا يا عمر أتينا هنا في هذا اليوم ؟

-لأنه آخر مكان رأيت فيه أمي تركتني ألعب وأمرح وماتت في صمت حتى لا تؤلمني.

نظرت إليه نظرة أخيرة، ثمّ نظرت إلى السّماء وأنا أهمس "هذا ما كنت أريد أن أراه " بينما عمر كان يبحث عني مع أبيه حتى عثر عليّ وأنا.....

****

# حدث في الإجازة

استطاعت الحصول على إجازة مدة أسبوع بعد تعبٍ دام شهوراً لإنهاء رسالة الماجستير.. تنفست الصعداء بعد خروج زوجها للعمل وأبنائها للمدارس.. قررت أن تحصل على ساعات نومٍ إضافية، ثمّ تقوم بتنظيف الشقة التي أهملتها لانشغالها بالبحث والدراسة.. بدأت بجمع أشلاء الألعاب التي ملأت الحجرات.. الكتب والأقلام المبعثرة على الأرض.. الصحون والأكواب التي تحمل بقايا الطعام.. الأحذية المتراكمة في المدخل.. الملابس المتسخة في كل مكان.. كل شيء خارج مكانه كأنهم يعيشون داخل غابة مهجورة وقد احتلتها مجموعة من القرود الفوضوية.

أخيراً انتهت وتفرغت لحجرة نومها التي لا زالت تحتفظ برونقها، قامت بتنظيفها وأثناء ترتيب أغراضها الخاصة عثرت على قطعة معدنية غريبة الشكل تشبه الفلاشة لكنها ليست فلاشة تعجبت منها فقررت أن تعرضها على صديقة لها خبيرة بالإلكترونيات.. ولم تتوانَ أخذتها معها وذهبت للتسوق وقبل عودتها مرت على صديقتها واستشارتها في الأمر.. وعندما أمسكت بها وفحصتها ظهر الفزع على وجهها وأوضحت إن هذه الفلاشة عبارة عن جهاز تنصت حديث جدّاً... شعرت بالصدمة لدرجة أن عقلها

توقف عن التفكير للحظات، طلبت منها صديقتها ألا تخبر أحداً حتى تنتهي من الفحص وتعرف الشركة المصنعة وجهات الإرسال.

خرجت من عندها في حالة من الذهول تحدث نفسها:

-من الذي يراقبني ويتنصت عليّ؟ هل الموضوع له علاقة برسالة الماجستير وأبحاثي في اللغة العربية كلغة حية وثرية؟ هل هي جهات عالمية تخشى من هيمنة اللغة العربية على باقي اللغات أم هي أجهزة المخابرات الوطنية التي اعتبرت أبحاثي نوعاً من الإرهاب؟ أم أعداء الوطن الذين لا يريدون لنا التقدم والازدهار؟

كادت تصدمها سيارة مسرعة حين جذبها أحدهم بعيداً عن الطريق وسقطت على الأرض.. تجمع حولها المارة نهضت وهي تطمئنهم أنها بخير تكاد تقسم إنها بخير حتى يتركوها ترحل.. وعندما عادت إلى البيت قررت ألا تخبر زوجها إلا بعد اكتمال الحقيقة.

حاولت أن تتعامل بشكل طبيعي مع الجميع برغم الشك الذي سيطر على عقلها، كانت ترتاب ممن يزورها أو يطرق بابها أو يحدثها حتى محصل الكهرباء تتعامل معه بحذر شديد .

لم تهنأ بالراحة في هذا الأسبوع الذي حصلت عليه بعد عناء كانت على حافة الجنون تفكر كيف وصلوا لحجرة نومها ووضعوه في حقيبة يدها الأمر في غاية الخطورة، انتظرت تقرير صديقتها بقلق وعقلها يصور لها أنها

تحت مراقبة الأقمار الصناعية والمحطات الفضائية ومن غير المستبعد أن يكون هناك كائنات فضائية ترصد حركتها.

وأخيراً طلبتها صديقتها.. هرعت إليها فأخبرتها بما كانت تنتظره ولم تكن تتوقعه:

-الجهاز محلي الصنع يتصل بأي شبكة واي فاي مفتوحة ويرسل الإشارات إلى جهاز قريب في نفس المكان وهذا ليس له سوى تفسير واحد إن زوجك هو من يراقبك.

وقع صدمة الخبر أقوى من صدمة الخبر الأول.. تتمتم بدهشة:

-لماذا يفعل هذا.. هل يشك بي؟ هل صدر مني ما جعله يرتاب في سلوكي؟

شردت مع نفسها فتذكرت اتصالاتها العديدة بالدكتور المشرف على رسالة الماجستير والحديث معه لفترات طويلة لكن حدث هذا لأنه كان خارج البلاد ولابد من التواصل حتى تُنهي بحثها، ثمّ إنها لم تلحظ انزعاج زوجها بأي شيء على العكس كان يتركها وحدها ويجلس مع الأولاد ..

ومضت عيناها ثمّ استدركت:

-إنه لم يكن يتركني كان يجلس مع جهاز التنصت ويسترق السمع.. يا إلهي ليته كان حلماً.. كيف سينتهي ما أنا فيه.. كيف سأسامحه على شكه بي.. مجرد دفاعي عن نفسي إهانة في حقي!

أخذت نفسًا عميقًا في طريق عودتها وقررت أن تترك الأمور تسير بشكل طبيعي ولا تُظهر أمامه أي رد فعل حتى يكتشف بنفسه حماقة ما فعله، وكل ما عليها أن تستمع بإجازتها التي لم يتبقَ منها سوى يوم واحد ربما تقضيه في فراشها لتستريح من تعب كل الأيام الماضية.

****

# ظل الأب الذي يأتي في الصباح

كلما اشتدت بي الأزمات وأحكمت حلقتها حولي أتذكر أبي - رحمة الله عليه – فأبكي شوقاً إلى رؤيته، كنت حينما ألقي برأسي على صدره أشعر بضآلة هذا العالم أمام ما يمنحه لي من دفء.

وفي هذا اليوم الذي تشاجرت فيه مع زميلتي في العمل اتصلت بأبيها الذي تحالف مع المدير على نقلي من مكان عملي إلى مكان آخر.. في هذا اليوم بكيت كطفلة تفقد أباها وسط مدينة مكتظة بالزحام.

نفذت قرار النقل على مضض ورغم بعده عن بيتي بمسافة كبيرة إلا أنني شعرت بالسكينة بعيداً عن المشاكل التي كانت تسببها لي... وبمرور الأيام اعتدت على بعد المسافات كتلك التي تحول بيننا وبين من نحب.

وفي يوم عيد ميلادي وأنا في طريقي إلى العمل اشتقت لأبي بشدة.. تذكرت عندما كان يأخذني لأختار هديتي بنفسي - مهما كانت باهظة الثمن لا يبخل عليّ بشيء – ونظل نقضي يومنا في احتفال كمناسبة فريدة في حياته.. تدفقت الدموع من عيني لدرجة أنني لم أشعر بذلك الرجل الذي صدمني في كتفي التفت لأعتذر له فلا أدري من منا المخطئ لكن ما رأيته لجم لساني وجعلني أسير في حالة ذهول غير مدركة لأي شيء حولي وبعدما تخطيته بمسافة كبيرة استحضر عقلي ما رأته عيناي إنه أبي نفس الملامح

نفس الخطوات نفس الملابس، وبعدما استوعبت ما حدث حكيت لأمي فهدأتني وقالت إن ما رأيتيه مجرد خيال.

أصدق وجود الأشباح لكن ما رأيته ليس شبحاً ولا خيالاً إنه إنسان من لحم ودم شعرت بحرارة جسده عندما صدمني، كان داخلي شعور غريب إنني سأقابله لمرات أخرى وهذا ما حدث فقد كان يعترض طريقي كل يوم محملاً بنظرات حب وشفقة لكني لم أجرؤ على الحديث معه ولم أستطع البوح لأي أحد بما يحدث حتى لا أتهم بالجنون.

اعتدت على رؤيته كل صباح وأنا في طريقي إلى العمل أظل أنظر إليه من بداية الشارع وهو قادم في اتجاهي حتى يمر من جانبي ويختفي، وفي يوم واتتني الشجاعة وقررت أن أحدثه فوقفت أمامه على بعد عدة أمتار خشية أن يكون شبح ويتحول إلى صورته الحقيقية.. وقف في منتصف الشارع تماماً وعندما همت الكلمات بالخروج من فمي تذكرت تلك الحمامة التي عششت خلف شرفتي وحينما أبصرتني أتلصص عليها هربت وتركت فراخها تموت جوعًا.. صوّب عينيه في عينيّ فاستجمعت أنفاسي ووجهت له السؤال :

-هل أنت..... ؟؟

وفجأة لُجم لساني فقد جاءت سيارة بسرعة جنونية ودهسته كان ينظر في عينيّ وهو يسقط.. كنت على وشك أن ألقي نفسي عليه وألملم أشلاءه التي تناثرت في جنبات الطريق لكنها أيدي الناس التي أمسكت بي وأبعدتني عن

مكان الحادث.. انتظرت حضور الشرطة حتى أتحقق من هويته لكن للأسف لم يعثروا معه على أي إثبات للشخصية وعندما كتبوا في المحضر أن الجثة مجهولة الهوية كنت على وشك أن أخبرهم أنها جثة أبي لكني تذكرت أن أبي مات منذ عام مضى.

بصعوبة انسحب من المكان وأنا أفكر:

-ترى من هذا الرجل؟ ومن سيؤنس وحشة صباحاتي بعد اليوم؟

****

# الشاهد الصامت

نحن الذين نعرف قيمة الحياة لأن الحياة تمنحنا للآخرين بلا مقابل ولدنا لنكون لهم ونموت ليستمر وجودهم لكننا نشهد كل يوم على أفعالهم ونتألم بصمت.

فمنذ حملتني الريح بذرة صغيرة وألقتني على أطراف هذه المدينة وأنا أسجل كل شيء على جذعي هنا جلس الرحالة وحفروا حروفهم الأولى لتكون ذكرى منسية في دوامة الزمن، وهنا أطفال لعبوا وكتبوا أسماءهم ليتذكروها عندما يكبرون، وهنا عرق العمال الذين حفروا الطريق واستظلوا بظلي، وهنا دموع وأنات حيوانات صغيرة شكت قسوة البشر، كل خط في جذعي يحمل قصة من تاريخ لا يُنسى:

-كم بكيت وكم حزنت وكم ضحكت وكم فرحت!

الطيور تحوم حولي وتهبط على فروعي كمحطة يستريحون فيها من رحلات الرحيل والعصافير تبني أعشاشها بين غصوني، كنت أحنو على فراخهم وأحاوطهم بأوراقي لكني لم أمنع عنهم غدر الأشرار فلازلت أتذكر ذلك الثعبان اللعين الذي تسلل خفية على فروعي واقتنص الصغار على غفلة مني.

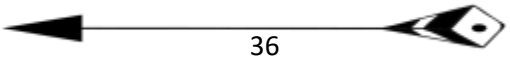

تأتي الريح من العام للعام فتنتفض أوراقي وأظل عارية حتى يجيء الربيع فيكسوني بأجمل الثياب لكني لن أنسى ذلك اليوم الذي انتفضت فيه أوراقي دون ريح عندما جاءتني تلك الطفلة الشقراء ذات السنوات التسع تئن وتبكي... جسدها الصغير ينزف من القرح والجروح التي تتناثر عليه كنت أريد أن أضمها أن أسكنها داخل جوفي... دنوت فروعي منها عسى ظلي يخفف عنها ما تعانيه من ألم حتى جاء رجل شديد القسوة أمسكها من شعرها وسحبها بشدة وهو يصرخ: كيف تجرئين على الهرب من سيدك!

انهال عليها ضرباً ووعدها بالمزيد عند العودة، صرخت البنت من شدة الألم ولم أحتمل.. لم أحتمل انتفضتُ من قوة صراخها حتى سقطت كل أوراقي ومكثت أبكي لأيام طويلة.

-كيف تحمل قلوبكم أيها البشر كل تلك القسوة ؟

لم أنسَ ملامح ذلك الرجل التي تتسم بالعنف والجنون وأنا داخلي غصة وتمنى أن يمد الله في عمري الله كي أرى انتقامه حتى جاء هذا اليوم؛ كنت منشغلة بالنظر إلى سرب الحمام الذي يحوم حولي في دوائر كبيرة يستعد للهبوط على فروعي الصلبة، ثمّ جاء رجل يتحسس الطريق؛ فتعثر بي ألقى جسده تحت جذعي بتعب وجهد نظرت إليه فتذكرت تلك الملامح التي تتسم بالعنف والجنون، جلس يبكي في صمت ويهمهم بأن الله انتقم منه بفقد ماله وبصره ولا يجد من يقوم على رعايته بعدما هرب منه الجميع ظل يهذي:

- بذنب الطفلة.. بذنب الطفلة!

هنا تنهدت أخذت نفساً عميقاً وأنا أنظر إلى السماء وأحدث ربي:

- لولا عدلك يا ربي لفسدت الأرض بمن عليها.

يداعب النسيم أوراقي فترقص فرحاً وتتفتح لقطرات المطر الساقطة برفق على أغصاني.. منذ حملتني الريح على أطراف هذه المدينة وأنا أحمل تاريخها في أعماقي، الهواء القادم يحمل بعضاً من ذكرياتي ويلقي بذرة مني في أطراف مدينة أخرى بعيدة لتستمر الحياة.

****

# الزائر

الغرفة مظلمة إلا من ضوء خافت يأتي من الصالة... السكون يعمّ المكان... ترقد وحدها في الشقة فزوجها يقضي معظم اليوم في العمل... لازالت محمومة عانت من الحمى لأسابيع طويلة واحتار الأطباء في مرضها الذي لا يعرفون له سبب أو علاج، بصعوبة تفتح عينيها على صوت ضجيج قريب منها فوجدت بجوارها فتى يافع انتهى للتو من إعطاءها بعض الحقن بعدها بدأت تشعر بالسخونة تتبخر من جسدها وبالمرض يذوب تدريجياً حتى عادت العافية تدب فيها فجلست تنظر إليه بدهشة :

-من أنت وكيف دخلت الشقة؟

-أنا ابنك.

-ابني!! كيف أصبح لي ابن كبير مثلك وأنا لم أنجب إلى الآن.

-أنا ابنك الذي لن تريه أبداً أنت نفسك لم تعرفي إنك كنت حاملاً عندما سرقوني من رحمك.

بدأت تستعيد الوعي لكن الخوف يداعب عقلها ما بين تصديق ما تسمع أو تكذيب ما ترى، ثمّ تذكرت قبل مرضها أنها رأت كرة دوارة تدور في الحجرة بسرعة رهيبة، ثمّ تخترق جسدها بعدها ذهبت في غيبوبة ولم تفق سوى في تلك اللحظة التي شعرت فيها بالضجيج.

تتمتم: إن ما تقوله لا يحدث سوى في الأحلام.

-إنها أحلام العلم يا أمي أصبح كل شيء ممكن ومتاح.

لازالت تغرق في الدهشة فتسأله:

-كيف سرقوك منذ أسابيع وأنت تحدثني الآن؟

-بعدما سرقوني وضعوني في رحم أم أخرى وأنا الآن أتكون في رحمها لكني أتيت إليك من المستقبل بعدما نجح جيشي في تهريبي.

-جيشك! هل أنت قائد؟

-لا لكني اخترعت جيشاً آلياً يخوض الحروب بمهارة فائقة لا يستطيع العدو قهره وفي نفس الوقت لا يستطيع العدو اكتشاف الفرق بين الجندي الحقيقي والجندي الآليّ

-يا إلهي!!!

-لقد ورثت إبداعك وعبقرية أبي.

-ومن الذي سرقك؟

-دولة عظمى تريد احتكار هذا الجيش لصالحها أما الدول المعادية لهذه الدولة فقد حاولوا قتلك بميكروب مطور حتى لا تنجبيني وقد أنقذتك بمضادات لذلك الميكروب.

-كيف يحدث كل هذا وأنت لم تولد بعد؟

-لقد طوروا آلة الزمن بشكل رهيب بحيث يتحركون في الزمن كما يحرك الإنسان سيارته يميناً ويساراً، لكن اطمئني يا أمي لن يصلوا إليك مرة أخرى فقد دمرت الفجوة الزمنية التي تؤدي إلى هنا.

تنبض ساعة في معصمه نبضات شديدة فيودعها وينهض بسرعة معتذراً بانتهاء الزمن المحدد للزيارة يتلاشى من أمام عينيها كأنه إرسال تلفزيوني وانقطع البث فجأة.

تجلس غير مصدقة ما سمعت وما رأت تسأل نفسها هل كانت نائمة أم تحت تأثير الحمى التي أثرت على المخ وجعلته يهذي بخيالات غير معقولة! إن كان ما حدث حلماً فكيف استيقظت منه وإن كان حقيقةً فكيف انتهت سريعاً!

نهضت من الفراش لأول مرة منذ عدة أسابيع.. شعرت بقوة خفية تسري في أوصالها بحيث استطاعت تنظيف الشقة بشكل سريع، وعندما عاد زوجها لم يصدق أنها تقف أمامه هكذا بلا تعب وقفت تحدق في وجهه كأنها تراه للمرة الأولى حين لاحظت أن هذا الزائر كان يشبهه تماماً لكن هل تحكي له ما حدث وهل سيصدقها؟

ربما!!

****

# عندما يأتي الغرباء

ونحن صغار كانت الجدات يحكين الحكايات الجميلة التي كنا ننتظرها من المساء إلى المساء وذات ليلة ذكرن أمامنا قصة عن الغرباء الذين يأتون كل عام عندما تبرق السماء؛ وصفت إحداهن جمالهم الأسطوري وقوتهم الخارقة، وتذكرت أخرى حادثة انهيار السد وكيف أعادوا بناءه وحين جاء السيل وجرف البيوت وكيف شيدوها أفضل مما كانت، وتعجبت جدتي لأمي من معرفتهم لكل واحد باسمه وصفته حتى الصغار الذين لم يولدوا بعد والأكثر من ذلك أنها أشارت عليّ وقالت لقد قالوا لي: بلغي "وفاء محفوظ" منا السلام.

حدث هذا قبل ميلادي بسنوات كنت أسأل نفسي كيف عرف الغرباء اسمي... ثمّ كبرنا وذهبنا للمدارس والجامعات وأخذتنا التجارب ونسينا حكايات الماضي حتى سافرت في رحلة عمل وواجهتني مشكلة كبيرة حيث تقدمت بمشروع عملاق وفاز مشروعي على باقي المنافسين... لكنّني لم أعرف أن أحدهم يملك من الحقد ما جعله يقتحم مكان سكني ويحاول قتلي فانهال عليّ بضرب مبرح وأطبق على رقبتي بيديه يريد خنقي، وعندما يأست من الصراخ استجمعت قوتي ودفعته بعيداً عني وهربت إلى الشارع أخذت أجري وأجري لا أدري إلى أين أذهب فهذه ليست مدينتي ولا يوجد

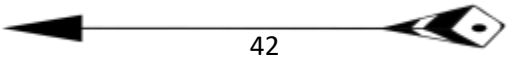

أي وسيلة مواصلات متوفرة في تلك الساعة، واصلت الركض حتى وجدت نفسي بجوار إحدى الحدائق فاختبأت فيها... انزويت في ركن بعيد وأنا أبكي لم تكن وحشة المكان ترعبني بقدر خوفي من ملاحقته لي.. لم أعرف ماذا أفعل لكن أبي علمني أن ألجأ للصلاة وقت العسرة فاتجهت للقبلة وأنا وحدي في المكان كله فرب العباد يسمعني يراني يطلع عليّ مكثت أصلي وأتوسل إلى الله بالدعاء.

لمحت من خلف دموعي السّماء تبرق وتتحرك كرة من النور نحوي حتى تستقر وسط الحديقة ويخرج منها غرباء في غاية الجمال والقوة يقفون أمامي ويحدثونني:

- يا وفاء لا تخافي.

وأنا في قمة الذهول أسألهم : كيف تعرفون اسمي؟

-لقد وصلتنا استغاثتك منذ زمن بعيد.

أخذوني معهم وأنا غير مدركة ماذا ركبت ولا كيف جرى الحديث بيننا حتى وجدت نفسي في مدينتي أمام منزلنا ووجدت نفسي في حضن أبي الذي كان يهدئني ويمسح دموعي لا أدري منذ متى، وبعد أن هدأت وحكيت له ما حدث سألته عنهم قال لي:

-لا ندري حقيقتهم لكن الله أرسلهم لنجدتك.

****

# يوم من الماضي

-تعلمون يا أبنائي أن اليوم الذي يمضي لا يعود وأن العمر ما هو إلا أيام دول .

اعترض أحدهم :

-لكنك يا معلمتي قلت لنا قبل ذلك أنه من الممكن أن يأتي يوم على الإنسان يستطيع فيه السفر عبر الزمن .

أومأت برأسي وقلت:

-قال تعالى في سورة الرحمن " يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان "

ثمّ أكملت حديثي: أعطانا الله القدرة على فعل أي شيء لكن في حدود مشيئته فهل يستغل الإنسان ذلك بشكل صحيح أم سيحوله إلى شيء مدمر ويستخدمه كأداة حرب؟

قاطعني قائلاً: لو أُتيحت لي الفرصة لفعلت الكثير من أجل صلاح البشرية.

ابتسمت في وجهه: أتمنى ذلك.

انتهت الحصة وكذلك اليوم الدراسي خرجت من المدرسة مسرعة.. قفزت داخل الباص، فقد تأخرت على أبنائي الصغار أريد أن أعد لهم الطعام

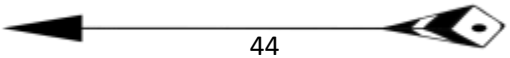

وأساعدهم في إنهاء واجباتهم المدرسية، ذكرني الموقف بأمي - رحمة الله عليها - عندما كنت أتأخر قليلاً أثناء وجودي في الجامعة، كان يطحنها القلق وتظل تبكي حتى أعود، شردت قليلاً ولم أشعر بالباص وهو يتوقف حتى سمعت السائق يقول: لقد وصلنا إلى المحطة الأخيرة.

انتبهت لنفسي لقد فاتتني محطتي نزلت على الرصيف لا أعرف أين أنا تلفت حولي واكتشفت أنني قريبة من منزلنا القديم راودني عقلي أن أذهب وألقي نظرة عابرة فقد اشتقت لرائحة أبي وأمي، وصلت البيت تأملته من الخارج وفجأة لجمتني الدهشة برؤية أمي تقف في الشرفة وتحدثني:

-لماذا تأخرت أنتظرك منذ ساعات اصعدي بسرعة .

كأنني دخلت في حلم مفاجئ أصعد الدرج وأنا أشعر بخدر في جسدي لا أدري هل أنا نائمة أم مستيقظة، فتحت الباب استقبلتني بالأحضان.. ألقيت عيني في الداخل هذا منزل أبي كما كان في الماضي الجدران بنضارتها الأثاث اللامع الذي كانت أمي تعتني بنظافته الأرضية الممسوحة بالفنيك وأمي تجذبني إلى الداخل غير مستوعبة لذهولي تحسبه تعباً وتطلب مني تبديل ملابسي لأتناول الطعام، دخلت حجرتي وقفت أمام المرآة لا أعرف من أنا لم أجد تلك المعلمة المتعبة بل وجدت فتاة شابة في بداية العشرين من العمر على قدر من الجمال والنضارة، حاولت استيعاب ما حدث لكن أمي لم تمهلني شدتني وأجلستني على المائدة وبدأت تطعمني بيدها أعلم

مدى حبها لي، فقد كنت ابنتها الوحيدة وهي أيضاً كانت ابنة وحيدة فلم تكن تعتبرني ابنتها فقط بل أختها وصديقتها.

بعد الانتهاء من الطعام بدأت تحكي لي عن يومها الحافل بالأحداث البسيطة عن كل صغيرة وكبيرة وعن أبي ومخاطر عمله .

وأنا أكتم ما بداخلي من دهشة أردت فقط أن أنام في حضنها لأستريح من عناء يومي الشاق منذ استيقاظي في الفجر لإعداد الفطور وتجهيز أولادي للمدرسة، ثمّ ذهابي إلى عملي والمعاناة اليومية مع الطلاب المشاغبين حتى الحوار الذي انتهى به يومي في العمل... وضعت رأسي على صدرها ونمت بعمق كأني لم أنم طيلة حياتي وهي تمسد شعري وظهري في حنان بالغ... غفوت حتى صباح اليوم التالي فأيقظتني لأذهب للجامعة.

أقنعت نفسي أن أعيش اللحظة ولا أنشغل بأي شيء آخر.. ذهبت إلى الجامعة، يااه... رأيت أصدقائي القدام كم تحمل عيونهم المرح الذي لن يعرفوه بعد ذلك، جلسنا بعد انتهاء المحاضرات نتبادل الأحاديث عن الطموح والمستقبل أردت أن أخبرهم بكل ما أعرف عنه لكني لم أفعل وقفت ساكنة صامتة أتأمل عيونهم التي تبرق بالأمل وكلماتهم التي توحي بالتفاؤل ابتسمت متمنية أن يستمروا بهذا القدر من الطاقة الإيجابية في المستقبل، انتهى اللقاء وافترقنا لا أدري ماذا أفعل فقررت العودة .

وفي الطريق كانت تمطر نظرت إلى السماء أستقبل قطرات المطر بفرح طفولي وأنا أسرع الخُطى قبل أن يشتد المطر.. أسرع وأنا أفكر في الماضي

والمستقبل معاً وفي غمرة أفكاري وجدت نفسي أمام باب شقتي وأطفالي يفتحون لي بقلق:

-لقد تأخرت كثيراً يا أمي!

ما الذي أصاب ملابسك؟

-ألم تكن تمطر منذ قليل !!

-لا نحن في الصيف والمطر لايسقط سوى في الشتاء.

-حسناً.. لقد عدت.. هيا يا أطفالي سأحكي لكم كل شيء عندما يحين وقته لكن أولاً لننهي يومنا هذا.

****



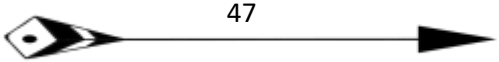

## العودة إلى النقاء

ابتعدت عن كل من حولها إلى حيث تجلس وحدها في مواجهة البحر، يخبط الماء قدميها وترسل عينيها إلى الأمواج المتلاطمة، تنهمر الدموع وهي تسأل نفسها:

-ما الخطأ في شخصيتي كي يفعلوا بي ما فعلوه كل هذه الخيانات التي تعرضت لها كل تلك الخناجر التي طعنتني؛ أخي استأمنته على مالي الذي كسبته بكدي فخانني وسرقه وصديقتي التي أودعتها أسراري أفشتها وتخلت عني أفهم أن الخيانة من صفات الأشرار لكن أن تأتيني ممن وثقت بهم وتمسكت بوصالهم فهذا يفوق قدرتي على التحمل.

يهتز جسدها من شدة البكاء تلقي برأسها بين كفيها وتنتحب حتى تستنفد كلّ الدموع وتهدأ قليلاً، تنظر للشمس وهي تغيب ككرة نارية تسقط في قاع البحر وعندما همت بالانصراف رأته قادماً نحوها فركت عينيها غير مصدقة أنه يسير فوق الماء حتى وقف أمامها.. شعرت بحنين تجاهه كأنها تعرفه فيناديها:

- ابنتي الحبيبة.

نظرت إليه بدهشة وابتعدت عن الماء لكنه فتح ذراعيه وكرر "ابنتي الحبيبة تعالي إليّ" رغم خوفها إلا أنها لم تملك نفسها وارتمت بين ذراعيه ذلك الصوت تألفه وتلك الرائحة تشعر بها تراود عقلها بالتذكر، يمسك رأسها بكفيه وينظر في عينيها بشوق:

-لعلك لا تتذكريني كنت صغيرة عندما أخذتك من حضن أمك وأتيت بك إلى هنا.

تتسع عيناها من الدهشة وهي تسأله:

- من أنت؟

يمتزج صوته بالحنين والألم وهو يقول:

-أنا أبوك أنا من ألقاك في هذه النار التي تتأججين داخلها.

-كيف حدث هذا ؟

-سأحكي لك... منذ زمن قديم ونحن نعيش في أعالي البحارلا نخالط باقي البشر لا نحيا بينهم ولا نسمح لهم بالحياة بيننا.

-لماذا؟

-كنا نخشى على أفكارنا من التلوث وعلى أخلاقنا من الفساد فليس لدينا وقت لنهدره في الألم الإنساني من جراء الخيانة والغدر والطمع فقد فرغنا عقولنا للعلم والبحث والمعرفة، وبعد مرور زمن مديد في هذه العزلة والتفرغ للعلم فكرنا نحن مجلس شورى العلماء أن نفيد البشرية بما توصلنا إليه من تقدم تكنولوجي لكننا اعتادنا ألا نفعل شيء دون اختباره

معملياً وبناء على ذلك قررنا أن نزرع نموذج منا داخلهم ونراقب ما يحدث، فقررنا أن نرسل طفلاً به جينات عالمنا لينمو ويتكيف مع طبائعهم واستقر الاختيار عليك لأنك كنت أصغر طفلة في المدينة فحملك روبرت طائر وذهب إلى مشفى للولادة في هذه المدينة التي كنا نتوسم فيها الخير ووضعك مكان طفلة كانت قد ماتت للتو لعيب خلقيّ في قلبها دون أن يلاحظ أحد فدائماً الصغار غير مميزي الملامح وكنا قد زرعنا تحت أذنك جهاز مراقبة وكانت غرفة العمليات توافينا بأحداث يومك أول بأول.. كنا نعرف ما تعانيه من صعوبة التكيف مع هؤلاء البشر منذ نعومة أظافرك وما تعرضت له من قسوة على يد إخوتك والعنف الذي وقع عليك من زملاء الدراسة والمرض الذي أصابك من تلوث الهواء، ثمّ أخيراً الخيانات التي حدثت، كنا نراقب في صمت وألم حتى وصلنا للنتيجة بعدم ملائمة الوقت للاختلاط بهم.

اليوم يابْنتي موعد انتهاء التجربة وفشلها في نفس الوقت.

أمسك يدها برفق وسحبها داخل الماء وهو يقول:

-هيا يابْنتي لنعود لمدينتنا وسط البحار.

كان الظلام قد حلّ بالمكان... خرجت من الماء كرة تشبه غواصة صغيرة استقلتها معه وهي تلقي نظرة وداع على أضواء البيوت القادمة من بعيد لا تدري أتفرح لعودتها لوطنها أم تحزن لرحيلها عن العالم الذي عاشت فيه...

هزت رأسها غير مكترثة بسنوات عمرها التي هُدرت في تجربة لم تجنِ منها سوى ذكرياتها السوداء، يكفي أنها ستترك كل شيء وتلتقي ببشر يشبهونها.

نظرت إليه وهي تقول بأسى:

-ربما تنجح التجربة في زمن لاحق.

ابتسم وهو يقبل رأسها وانطلقت الغواصة.

****

# الكتاب الغامض

عم عبدو رجل عجوز طويل القامة أسمر البشرة جاء من أعماق الريف وظيفته هي العناية بالحديقة الرئيسية في المدينة، يعمل بها منذ زمن بعيد وقد تعلق بها كبيته الثاني؛ يقلّم الأشجار ويراقب نمو الأزهار وينظف الحشائش، لا يزعجه عبث الأطفال بها وما يحدثونه من فوضى أثناء زيارتهم للحديقة حيث يقومون بتسلق الأشجار وقطف الورود وتمزيق الحشائش يظل يراقبهم في صمت وهو يردد داخله" الأطفال أحباب الله".

وكثيراً ما كان الأطفال يلتفون حوله فيحدثهم عن أعمار الأشجار وأنواعها وثمارها وأخشابها، رغم حبه الشديد للأطفال إلا إنه لم ينجب، كان يغدق على الأطفال بالحب والحنان هو وزوجته، وكنت قد اعتدت منذ صغري على زيارتهما والسؤال عنهما فهما يسكنان بجوار بيتنا وكانا يعاملاني كابنة لهم.

وفي إحدى زياراتي لهما وجدت عندهما كتاب قديم جداً فتعجبت لمعرفتي بجهلهما بالقراءة والكتابة فكيف حصلا على هذا الكتاب؟ أخبرتني زوجته بأن عم عبدو عثر عليه أسفل الشجرة الكبيرة عندما كان يحفر ليزرع شجرة جديدة بجوارها، استأذنتها في استعارة الكتاب لأقرأه فتطوعت وأعطتني إياه لربما أنتفع به، لكني لم أفتحه في نفس اليوم فقد انشغلت بالحديث معها، ثمّ عدت إلى بيتنا ووضعت الكتاب على المكتب حتى انتهى

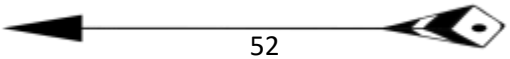

من بعض الأعمال وأعود لأقرأه لكن الوقت سرقني فحل الظلام قبل أن ألمس الكتاب فكانت ليلة غريبة مكثت طوال الليل أسمع أصوات مرعبة كأصوات البوق وأشعر ببرد شديد في حجرتي رغم إننا في فصل الصيف قلت لنفسي ربما أضغاث أحلام حتى نهضت في الصباح وتذكرت الكتاب فأسرعت إليه لأعرف محتواه فقد كان شكله غريباً ذا غلاف من الجلد أسود اللون لا يحمل عنوان من الخارج، سميت الله وفتحت الكتاب فشعرت بريح شديدة تخرج من بين الصفحات وتحاوط جسدي والحروف تتحول إلى أشعة من نور وتدخل في فمي عندما كنت على وشك الصراخ.

لا أدري كم من الوقت مضى على هذا الحال لكني عندما رفعت رأسي بعيداً عن الكتاب كنت أكثر هدوءاً؛ نظرت من خلف الجدار فرأيت الشمس تطلع من جهة الغرب وانقطعت الكهرباء وتعطلت كل الأجهزة ولم تعمل شبكات المحمول والنت وتوقفت السيارات والقطارات والطائرات.. المفاجأة عقدت ألسنة الجميع الكل يقف في ذهول حتى قطع صمتهم زلزال مدمر يرج الأرض من تحت أقدامهم ويبتلع كل شيء.

فأخذت أصرخ من هول ما رأيت وأثناء صراخي كانت الحروف تعود إلى الكتاب وتُطوى صفحاته قبل أن يتجمع حولي كل من في البيت ليعرفوا سبب صراخي فلم أعرف ماذا أقول، قلت لهم إنني رأيت كابوساً مخيفاً وأخذت الكتاب وأنا أسمع هاتف داخلي يردد:

-أعيدي الكتاب إلى مكانه... اعيدي أمانة الأجداد حتى يأتي وقتها.

ذهبت إلى عم عبدو في الحديقة وطلبت منه أن يعيد الكتاب إلى مكانه وعندما سألني عن السبب أخبرته: إنني رأيت هاتفاً في منامي وطلب مني ذلك، لم يجادلني أخذ الكتاب وحفر بجوار الشجرة العجوز ووضع الكتاب ثمّ ألقى عليه التراب فشعرت حينها أنني فقدت جزءاً مني، وأنني لن أعود إلى ما كنت عليه.

****

# نهاية المعركة

الغبار يعلو المنازل المهدمة من جراء القصف الذي لم يهدأ منذ سنوات طويلة، رائحة الموت تفوح من الشوارع التي تئن ببكاء الأطفال، صرخ بأعلى صوته وهو يرفع رأسه إلى السماء:

-إلى متى ستظل هذه الأرض محتلة؟

في اللحظة التي نظر فيها إلى السماء لمح بريقاً يظهر ويختفي في اتجاهات مختلفة، اعتاد على هذا المنظر منذ بضعة أيام، أشاح بوجهه بعيداً ظناً منه إنها طائرة بدون طيار تتجسس على من نجا منهم، يعود ويلقي برأسه على صدره لم تعد تحتمل عيناه رؤية المزيد، يواصل سيره بخطوات وئيدة ليس هناك جدوى من الجري والاختباء، يبتعد عن كل شيء يبحث عن مكان خاوٍ من البيوت المدمرة، ظلّ يبتعد أكثر وأكثر حتى تعب وجلس يلتقط أنفاسه فرأى السماء تبرق بشدة، ثمّ يهبط طبق طائر أمامه خرج منه مجموعة من الرجال المسلحين فزع للوهلة الأولى ظناً منه أنهم جنود الاحتلال لكنه لم يعد يهتم بأن يبقى حياً ظل ساكناً مكانه وهم يقتربون منه وعندما وقفوا أمامه فتح ذراعيه وقال بسخرية:

-هيا اقتلوني ليس معي سلاح ولا حتى حجر.

ردوا بصوت جهوري: لم نأتِ للقتل نحن جيرانكم من كوكب المريخ.

قال بنفس اللهجة الساخرة:

-يا مرحباً.. لماذا جئتم؟

-مللنا صخبكم منذ سنوات ونحن نعاني من ضوضاء حروبكم تركنا سطح المريخ وسكنا باطنه حتى ننعم بالهدوء لكن لا فائدة لازالت تزعجنا قنابلكم وأسلحتكم الفتاكة.

-لكن السؤال لماذا جئتم؟

-كي ننهي المسألة... أرسلنا منذ أيام فرق استطلاعية لتتحرى المشكلة وقد وافونا بكل ما جمعوه من معلومات وجئنا لنساعدكم وننهي هذا الضجيج.

تغيرت لهجته إلى الجدية وهو يقول:

-هل ستحاربون معنا ضد الظلم؟

-نعم سنبدأ أولاً بتعطيل أسلحتهم وتدميرها، ثمّ نلقي القبض على القادة ونلقيهم في ممر دوديّ لا يستطيعون العودة منه.

شعر أن قلبه يكاد يقفز من الفرحة كأن الحياة عادت إلى جسده المتعب، ذهب معهم وبدأت المعركة تنتهي.

****

# محتويات الكتاب

الإهداء.....5

يوم رحيل الصوت.....6

حب من عالم آخر.....9

المحارب الأخير.....16

يوم اختفاء المسنين.....21

قلب الأم.....26

حدث في الإجازة.....29

ظل الأب الذي يأتي في الصباح.....33

الشاهد الصامت.....36

الزائر.....39

عندما يأتي الغرباء.....42

يوم من الماضي.....44

العودة إلى النقاء.....48

الكتاب الغامض.....52

نهاية المعركة.....55

محتويات الكتاب.....57

# تم بحمد اللّه



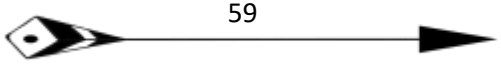

مجموعة قصصية

# حدث في الإجازة

عزة مصطفى عبد العال

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
1443 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com